

تفسير ابن كثير

قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ

يقول تعالى : (قل) يا محمد : (إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين) أي : لو فرض

هذا لعبده على ذلك لأني عبد من عبده ، مطيع لجميع ما يأمرني به ، ليس عندي

استكبار ولا إباء عن عبادته ، فلو فرض كان هذا ، ولكن هذا ممتنع في حقه تعالى ،

والشرط لا يلزم منه الوقوع ولا الجواز أيضا ، كما قال تعالى : (لو أراد الله أن يتخذ ولدا

لاصطفى مما يخلق ما يشاء سبحانه هو الله الواحد القهار) [الزمر : 4] . [و] قال بعض

المفسرين في قوله : (فأنا أول العابدين) أي : الآنفين . ومنهم سفيان الثوري ، والبخاري

حكاه فقال : ويقال : (أول العابدين) الجاحدين ، من عبد يعبد . وذكر ابن جرير لهذا

القول من الشواهد ما رواه عن يونس بن عبد الأعلى ، عن ابن وهب ، حدثني ابن أبي

ذئب ، عن أبي قسيط ، عن بعجة بن زيد الجهني ؛ أن امرأة منهم دخلت على زوجها -

وهو رجل منهم أيضا - فولدت له في ستة أشهر ، فذكر ذلك زوجها لعثمان بن عفان -

رضي الله عنه - فأمر بها أن ترجم ، فدخل عليه علي بن أبي طالب - رضي الله عنه -

فقال : إن الله يقول في كتابه : (وحمله وفصاله ثلاثون شهرا) [الأحقاف : 15] ،
وقال (وفصاله في عامين) [لقمان : 14] ، قال : فوالله ما عبد عثمان - رضي الله
عنه - أن بعث إليها ترد - قال يونس : قال ابن وهب : عبد : استنكف . [و] قال الشاعر
: متى ما يشأ ذو الود يصرم خليله ويعبد عليه لا محالة ظالما وهذا القول فيه نظر ؛ لأنه كيف
يلتئم مع الشرط فيكون تقديره : إن كان هذا فأنا ممتنع منه ؟ هذا فيه نظر ، فليتأمل .
اللهم إلا أن يقال : " إن " ليست شرطا ، وإنما هي نافية كما قال علي بن أبي طلحة ، عن
ابن عباس في قوله : (قل إن كان للرحمن ولد) ، يقول : لم يكن للرحمن ولد فأنا أول
الشاهدين . وقال قتادة : هي كلمة من كلام العرب : (قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول
العابدين) أي : إن ذلك لم يكن فلا ينبغي . وقال أبو صخر : (قل إن كان للرحمن ولد
فأنا أول العابدين) أي : فأنا أول من عبده بأن لا ولد له ، وأول من وحده . وكذا قال
عبد الرحمن بن زيد بن أسلم . وقال مجاهد : (فأنا أول العابدين) أي : أول من عبده
ووحده وكذبكم . وقال البخاري : (فأنا أول العابدين) الآنفين . وهما لغتان ، رجل
عابد وعبد . والأول أقرب على أنه شرط وجزاء ، ولكن هو ممتنع . وقال السدي [في قوله

[(قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين) يقول : لو كان له ولد كنت أول من

عبده ، بأن له ولدا ، لكن لا ولد له . وهو اختيار ابن جرير ، ورد قول من زعم أن " إن "

نافية .